الفصـــل الرابـــع

العـــلات الاجتماعية

١ ـــ أثر الرحلات المغربية الى المشرق ٠

٢ ـــ انخراط المغاربة فى سلك الوظائف المشرقية ٠

٣ ـــ موقف الموحدين من يهود المغرب والمشرق ٠

الصـــلات الاجتماعية

(١)

أثر الرحلات المغربية الى المشرق

تعددت رحلات المغاربة الى المشرق ولم تنقطع على مـــدى مـــراحل التاريخ الاسلامى • كذلك ، تكاثرت أعداد من استطاب منهم المقام فى أقطار المشرق ، وتشكلت منهم أكثر من طبقة اجتماعية بين سكان هـــذه البلاد • ونقرأ عن المظاهر الاجتماعية لهذا الجانب من العلاقات بين المغرب والمشرق فى أوصاف مختلفة جاءت على ألسنة الرحالة المغاربة •

(أ) وصف الرحالة المغاربة فى عصر الموحدين لموانى مصر :

١ ــ الاســـكندرية :

من ذلك ما جاء على لسان العبدرى فى قوله : « ثغر الاسكندرية مدينة الحصانة والوثاقة وبلد الاشراق اللامع والطلاقة وطلاوة المنظر وحـــلاوة المذاقة كل عنها ظفر الزمان ونابه ومل منها جيش الحدثان وأحزابه فـــلم تبد عليها للزمان ضراعة ولا كست لها فى معاملاته سلعة ولا بضاعة ولا وقفت له موقف ذل يوما ولا ساعة بل ثبية لحزبه ثبوت البطل وصابرت كيده حتى اضمحل سحره وبطل ، ولم تصغ أذنا الى ما يوعد به من الخنا والخطل فهى واقفة وقوف الاطواد سامية بطرف غير كليل وجيد غير متآد ، أخـــذة من الكفر وأهلية الخنق ، حتى أبدلتهم من الصافى المروق الكدر المرنق فسامروا الاسف مسامرة الندى للمحلق ودجا عليهم ليل هم أولهم بعد نهار سرور تألق ، واضطرم عليهم الاسى واحتدم فخالفـــوا النـــدم ، وقالوا عضـــو لا يفترق • مدينة فسيحة الميدان صحيحة الاركان مليحة البنيان تسفر عن محيا جميل المنظر وترنو بطرف ساج أحور تبسم عن ثغر كالاقحـــوان اذا

نور كأنه لم يغب عنها شخص الاسكندرية بما ساس فيها من عجائب بمانيها ودير . فانيك بمدينة كلها عجب قد ستر حسنها حسن غيرها وحجب ، ووفى بها الا ان حقه كما وجب . وقد أغنى عن تسطير وصفها بأسطره الاعلام وصرت به على المهارق الاقلام »[1] .

ويصف ابن بطوطة الاسكندرية بقوله : « ثم وصلنا فى أول جمادى الاولى الى مدينة الاسكندرية حرسها الله وهى الثغر المحروس ، والقطر المأنوس ، العجيبة لسان ، الاصيلة البنيان ، بها ما شئت من تحسين وتحصين ومآثر دنيا ودين ، كرمت مغانيها ، ولطفت معانيها ، وجمعت بين الفخامة والاحكام مبانيها ، فهى الفريدة تجلى سناها ، والخريدة تجلى فى حلاها ، الزاهية بجمالها المغرب ، الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب ، فكل بديعة بها اجتلاؤها وكل طرفة اليها انتماؤها ، وقد رحلها الناس فأطنبوا ووصفوا فى عجائبها فأغربوا .. »[2] .

ويتابع ابن بطوطة فى وصفه هذا ، فيصف مراسيها ومنائرها ، فضلا عن عمود السوارى ، ويعجب بابوابها الاربعة ، يعددها قائلا هى : « باب رشيد ، وباب البحر ، والباب الاخضر ويفتح يوم الجمعة فقط فيخرج الناس منه الى زيارة القبور ، وأخيرا باب سدرة واليه يشرع طريق المغرب »[3] .

---

(١) العبدرى (أبو عبد الله محمد بن محمد العبدرى الحيحى) الرحلة المغربية ، تحقيق محمد الفاسى ، الرباط ١٩٦٨ ، ص ٩٠ .

(٢) ابن بطوطة (محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتى الطنجى) المسمى أبو عبد الله ويعرف بابن بطوطة ، تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، تحقيق أحمد العوامرى ، محمد أحمد جاد الاولى ج ١ ، ٢ ، القاهرة ، ١٩٢٤ ، ص ١٢ . انظر ايضا : المقرى ، نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ٤٠٦ .

(٣) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ١٢ — ١٣ . ابن رشيد السبتى ، الرحلة ، تحقيق : نجاح مصطفى الدين ، ص ١٤٥ .

حظيت الاسكندرية ، ميناء مصر الشمالى بامتداح الرحالة المغاربة ونالت اعجابهم بعمرانها الفسيح واتساع طرقاتها وجمال مبانيها وتجارة معاهدها وقد ساعد على تعظيمها ما كان يلاقيه الرحالة الوافدون عليها من مشاق الرحلة وما كان ينزل بهم على أيدى الاعراب على الطريق ما بين تونس وسوسة وصفاقص وقابس وطرابلس ، وهو ما يعبر عنه العبدرى فى قوله : « وصحبنا فى بعض المراحل اليها نحو مائة فارس أو يزيدون ، وكان بالركب قوم رماة فهابتهم العرب ، وتحامت مكانهم وعصمنا الله منهم »(٤) .

٢ — عيذاب :

كان ينتجع عيذاب ميناء مصر الشرقية(٥) أعداد كبيرة من الرحالة المغاربة فى الحج ، وقد بلغت عيذاب نهاية القرن ٥هـ — ١١م درجة عظيمة من الازدهار ، وان كان لا يعرف السبب الذى أدى الى تحول طريق التجارة الشرقية الى عيذاب ، والواقع أن عيذاب كانت مركزا هاما للتجارة الشرقية (تجارة الكارم) ، كما كان طريق الحج يمر بها فى الفترة ما بين سنتى ٤٥٠ — ٦٦٠هـ / ١٠٥٨ — ١٢٥٨م . وربما أجاب ابن جبير فى رحلته عن هذا التساؤل أثناء وصفه لميناء عيذاب حين قال عنها فى سنة ٥٧٩هـ — ١١٨٣م : « من أحفل مراسى الدنيا ، بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط

---

(٤) العبدرى الرحلة ، ص ١١ .

(٥) كانت عيذاب نقطة الاتصال بين التجارة البحرية والتجارة النهرية وكان ميناؤها يتميز بعمقه وبخلوه من الشعاب النائية . فكانت ترد اليها البضائع من الحبشة واليمن وزنجبار بطريق البحر ، ثم تحمل على الابل فى الصحراء مسيرة عشرين يوما الى اسوان أو قوص ، ومن هناك تنتقل الى القاهرة فى النيل ، أنظر ، القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٤٦٨ . ابن جبير ، الرحلة ، ص ٦٤ .

فيها وتقلع منها ؛ زائد على مراكب الحجاج الصادرة والواردة »[٦] .

وكانت الضرائب الديوانية المقررة على النشاط الاقتصادى فى هـذا الميناء تشمل الوافـدين من الحجاج أيضا حيث صار يؤخـذ من كل حاج ثمـانية دنانير .

وكانت ضرائب الميناء تنقسم على أساس « ثلث المدينة للملك الناصر وثلثاها لملك البجاة وهو يعرف بالحـدربى »[٧] . وكثيرا ما تعطل سـفر الحجاج بسبب خروج ملكها وسلطانها من البجاة ضد سلطان مصر بالاستيلاء على المراكب التى تقلهم الى ساحل جـدة[٨] .

ومثل هذا الخروج على الاعراف المعهودة فى معـاملة الحجيج كان مثار غضب الرحالة المغاربة وأكثر من عبر عن ذلك العبـدرى أثناء نزوله بثغر الاسكندرية ، اذ يقول : « .. ومن الامـر المستغرب والحـال الذى أفصح عن قلة دينهم ، وأعرب أنهم يعترضون الحجاج ، ويجـرعونهم من بحره الاهانة الملح الاجاج ، ويأخذون على وفـدهم الطريق والفجـاج ، يبحثون عما بأيديهم من مال ، ويأمرون بتفتيش النساء والرجال ، وقد رأيت من ذلك يوم ورودنا عليهم ما اشتد له عجبى وجعل الانفصـال عنهم غاية

---

(٦) يؤكد ابن جبير على أهمية أحمال الفلفل التى شاهدها فى عيذاب ، وكانت تنتقل الى القاهرة ويباع الحمل منها بخمسين دينار ، ويباع نفس الحمل فى الاسكندرية بثلاثة اضعاف ثمنه للاوربيين (الرحلة ، ص ٦٤ — ٦٦) .

(٧) ابن بطولة ، الرحلة ، ص ٤٣ .

(٨) هى مدينة كبيرة كثيرة الحوت واللبن ، يحمل اليها الزرع والتمر من صعيد مصر ، أهلها البجاة وهم سود الالوان يلتحفون ملاحف صفر ، ويشدون على رؤوسهم عصائب يكون عرض العصابة منها اصبعا ، لا يورثون البنـات وطعامهم ألبان الابل ، ويركبون المهارى ويسمونها الصهب (ابن بطوطـة ، الرحلة ، ص ٤٢ — ٤٣) . راجع ايضا : التجيبى السبتى ، مستفاد الرحلـة والاغتراب ، ص ٢٠٥ — ٢٠٨ .

أربى ، وذلك أنه لمـا وصل المركب جاءت شرذمة من الحرس لا حرس الله مهجهم الخسيسة ، ولا أعدم منهم لأسد الاغات غريسة ، غمدوا فى الحجاج أيديهم ، وفتشوا الرجال والنساء ، وألزموهم أنواعا من المظالم »[٩] .

(ب) المظالم على تجـار المغرب :

وفى أخبار الرحالة الذين سبقوا العبدرى ما يشير الى جشع حرس الديوان بالاسكندرية وشراهتهم الكبيرة فى تقرير المكوس على الوافـدين عليها من بلاد المغرب والاندلس . وعندما ذكر ابن جبير مثل هذا الاجراء أثبت وجوده قبل رحلة العبدرى بنصف قرن ولم يلق تبعة ذلك على أهـل المدينة كما فعل العبدرى[١٠] . وانما أرجع ذلك الى فسـاد القائمين على ادارة الديوان مسجلا أيضا مشاهداته عن الاجراء الجمركى المذكور ، من حيث حصر أعداد الركاب وتدوين أسمائهم ومعرفة البلدان التى جاءوا منها، وحصر ما لديهم من أمتعة تمهيدا لتقدير المكس المقرر التى بلغت دينارين عن كل عشرة دنانير أن بنسبة ٢٠٪[١١] .

ويشرح الاستاذ محمد الفاسى وجهة نظر العبـدرى لتبرير سخطه فيقول : « .. عندما يقول أهل الاسكندرية فانه يعنى أولا المشرفين على

---

(٩) العبدرى ، الرحلة ، ص ٩٣ ؛ د . سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٢٦٢ — ٢٦٣ .

(١٠) جاء العبدرى فى هذا الصدد بأوصاف متدنية منها القول : « اكثر اهلها رعاع ضرر بلا انتفاع مع سوء أخلاق ومرارة مذاق وقلوب رباها الضغن تربية الاولاد ، جناها الخير والصلاح .. والغريب بينهم نكرة لا تتعـرف ان رواه زادوا الوجوه جهامة ونكروا منها ما قد نكرته الدمامة ، وجمجموا قولا — تما لؤوا على كل وصف شان وما زان وتواصوا على تطفيف المكيال والميزان . فان عاملهم غريب لم يلق منهم الا ما يريب ، يتخذونه هدفا ولكل منهم فيه سهم مصيب حتى يخرج من ماله بغير نصيب ، لا ترجا منهم فيئة انابة ولا تلقى منهم فئة رافة ولا عصابة ولا ينفع الغريب فى معاملتهم » . الرحلة ، ص ٩٢ .

(١١) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٧ .

الديوانة وأعوانهم الذين كانوا يطبقون الاوامر الصارمة الصادرة لهم فى معاملة من يرد عليهم من الخارج • تلك المعاملة القاسية ، نظرا لتخوفهم من الاعداء الصليبيين وجواسيسهم خشية تسربهم اليوم تحت ستار التجارة او الحج أو ما شابه ذلك »[١٢] •

ويزيد من وضوح صورة هذا الشرح ما ذهب اليه الدكتور سعد زغلول فى بيان مراحل فرض تلك المكوس وأسبابها الملحة اذ يقول : « فاذا كانت ملحة فى رحلة ابن جبير الاولى فانها بعد الانتصارات التى تحققت على الصليبيين بيدى صلاح الدين ، فان رحلة ابن جبير الاخيرة ، لم يعد لها نفس الالحاح • أما على أيام رحلة البلوى سنة ٧٣٧هـ — ١٣٣٦م فكانت الحروب الصليبية فى الشام قد انتهت منذ مدة ولو أن الاعمال العدائية مع أهل قبرص ورودس لم تنقطع نهائيا » • وعندما يصل هذا الحديث الى عهد الرحالة البلوى ، حيث بلغت الضريبة الجمركية فى أيامه ٢٠٪ مما يحمله الحجاج من أموال يقول : « وأغلب الظن أنها كانت أكثر المسائل الحاحا فى ذلك الوقت ، بدليل ما يذكر عن النويرى السكندرى اثر مفاوضات الصلح بعد غارة ملك قبرص كانت تتناخص فى تخفيض الضريبة على متاجره من الخمس الى العشر ، وأن يعفى حجاج قبرص الى كنيسة القيامة من دفع المكوس »[١٣] •

وبهذه المناسبة أيضا كانت تلك القصيدة التى بعث بها ابن جبير الى

---

(١٢) العبدرى ، الرحلة ، المقدمة ، ص ظ ، راجع ايضا : د . سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها ، ص ٥١٥ — ٥٢١ . د . سالم ، التاريخ والمؤرخون العرب ، ص ٢٢٥—٢٢٩ .

(١٣) د . سعد زغلول عبد الحميد ، الاثر المغربى والاندلسى فى المجتمع السكندرى ، الاسكندرية ، ١٩٧٥ ، ص ٢٥١ .

السلطان صلاح الدين يمدحه فيها لتخفيفه عن كاهل المسلمين ويذكره بالله فى حقـوق المسلمين ومنها :

رفعت مغـــارم أرض الحجـــــاز
بانعـــامك الشـــامل الهـامـــــر

فـكم لك بالشـــرق من حامـــــد
وكـم لك بالغـــرب مـن شـــاكر

وقـــد بقيت حسـبة فى الظـــلوم
بمـــــكة مـــن معلـن جاهـــــر

يعنـف حجـــاج بيت الالـه ويسطو
بهـــم ســـــطوة الجـــــائر

ويكشـــف عمـــــا بأيـديهـم
وناهيـك مـن مـوقـف صـاغـــر

وقـد أوقفـوا بعـــد ما كوشـفوا
كأنهـــم فى يـد الآســـــــر

ويـــلزمهم حلفـــــا باطـــلا
وعقبى اليمـــين عـــلى الفـاجـر

وان عـــــرضت بينهـم حـــرمـة
فليس لهـــا عنـه من ســـاتر(١٤)

وربما كان ابن جبير والعبدرى فى شكواهما من جور موظفى الديوان ينطقان بلسان عموم المغاربة ، لا سيما التجار منهم ، وتضرر هؤلاء من ظلم القباض أو المكاسة ، حتى أن ابن اياس يذكر فى عام ٨١٤هـ / ١٥—١٤١٦م

---

(١٤) العبدرى ، الرحلة ، ص ٩٥ .

أنه : « عندما توجه الملك الناصر فرج بن الظاهر برقوق الى الاسكندرية فى سنة ٨١٤هـ فلما دخلها كان له يوم مشهود ، فوقف له بعض تجار المغـــاربة بقصة يشكو فيها من ظلم القباض لهم فأبطل ما كان يؤخذ منهم من الثلث الى العشر ، فارتفعت له الاصوات بالدعاء »[١٥] .

ونضيف الى هذه الصورة صورة الاسكندرية المشرقة كما صورها لنا الرحالة ابن رشيد السبتى ، وقد سمى فيها الاسكندرية « باب المغـــرب » واهتم بوصف مساجدها بصفة خاصة لانها لفتت الانظار ويبلغ عددها نحو « عشر ألف مسجد أو عشرين ألف مسجد » . ويعدد ما بها من المدارس مثل : « المدرسة السلفية ، مدرسة صلاح الدين الايوبى ، مدرسة الابزارى ، دار الحديث النبيهية ، مدرسة عبد اللطيف بن محمد بن سند — أحد كبار تجار الاسكندرية » . ومع ذلك نجده يذم مدينة بلبيس كما فعل العبدرى بالاسكندرية ، حيث يقول فيها : « فبئس الاهل أهلها ، يا شر ما لقينا من بأسهم والله يجزيهم بسوء صنيعهم ، لقد أنعموا فى التفتيش لاســـبابنا ، وأغرمونا مالا نحب من أموالنا ، أنصف الله ظلامهم وأرانا أنوار الخروج من ظلامهم »[١٦] .

(ج) معاملة أهـــل مصر للمغاربـــــة :

ويتضح ضخامة حجم الجالية المغربية فى مصر من قول العبدرى نفسه فى وصف صعيد مصر : « .. وقد سمعت ممن جال فى صعيد مصر وريفها

---

(١٥) ابن اياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج ٣ ، ص ١٣٢ . انظر أيضا . د . سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٣٨٦ .

(١٦) ابن رشيد ، الرحلة ، تحقيق ، نجاح صلاح الدين القابسى ، ص ١٤٥ ، ١٥٩ — ١٦٤ .

أن أهلها لا بأس بهم وأنهم أشبه حالا من المذكورين بكثير ، ومع ما ذكرت فقد كاد المغاربة ينيفون على أهل البلاد كثرة لطيب الارض وسمعتهـــا وكثرة أرزاقها وربما تقاتلوا مع أهل الموضع فغلبوهم ، وقد فشا علـــى لسان الصغير منهم والكبير أن مغربيا يملكهم لا محالة ويتحدث بهـــذا عامتهم وخاصتهم .. » (١٧) .

وبخلاف ما جاء فى وصف العبدرى من سوء معاملة حرس ديـــوان الاسكندرية لاصحابه المغاربة ، يذكر فى وصف مدينة قوص بصعيد مصر جاوس الحجاج والتجار المغاربة مع عمدة هذه المدينة يكتب لهم كتـــب الامان ويحض على تسيير جميع مطالبهم : « .. فالمجلس أعزه الله ينتهز هده الفرصة فى خدمة المذكورين ، ويقابلهم بالاكرام والاجلال ، ويعاملهم بالاحترام ويوصى بهم كل الوصية ويبسط لهم من الانس ما أعلمه مـــن أخلاقه الرضية ، ويظهر الاجتهاد فى مصالحهم ، والاعانة لهم والعنايـــة بهم ، فيتقدم الى النواب بمساعدتهم على استئجار الجمال التى يحتاجون الى ثغر عيذاب المحروس . ويكتب المجلس من جهته كتابا شافيا الى نوابه بالثغر المذكور يتضمن الوقوف فى خدمتهم ، وتسفيرهم فى أجود المراكب والتأكيد على الربان فى أمرهم ورعايتهم وأكرامهم . ويفصل المجلس فى هدا الامر من أنواع التأكيد والمساعدة ما يجد شكره وأجره فى الدنيـــا والآخرة » (١٨) .

---

(١٧) العبدرى ، نفسه ، ص ١٤٨ . راجع ايضا عن أهمية العـــدد المغربى فى صعيد مصر : السبتى (أبو القاسم يوسف التجيبى السبتى ، ت ٧٣٠ هـ / ١٣٢٩ م) ، مستفاد الرحلة والاغتراب ، تونس ١٩٧٥ ، ص ٢٠٥— ٢٠٦ .

(١٨) السبتى ، مستفاد الرحلة ، ص ١٧٤ .

ولا يتوج هذا الحديث الاخير عن سوء معاملة المغاربة فى مصر الا قول المقرى ، بعد دخوله مصر سنة ١٠٢٨ هـ / ١٦١٩ م وتزوجه منها وأقامته بها مدة ، حسبما جاء على لساء ابن الحاجب :

يا أهـــل مصر وجـدت أيـــديكم
فى بذلهـا فى الســـخاء منقبضـــة
لمـــا عـــدمت القـــرى بأرضكم
أكلت كتبى كـــأننى أرضـــــة

ومما قاله بلسانه :

تـــركت رســـوم عـــزى فى بـــلادى
وصرت بمصر منسى الرســـــــوم
ونفسى عفتهـــــا بالـــذل فيهـا
وقلت لهـا عن العلياء صـــومى (١٩)

وينفى أو يخفف هذا القصيد الشعرى الهجائى السياسة الرحيمـة التى اتبعت مع المغاربة • ففى عصر صلاح الدين كانت السلطات المصرية تحن الى ضعاف الحال من المغاربة ويتمثل ذلك فى قول ابن جبير : « ومن أشرف المقاصد أيضا أن السلطان عين لابناء السبيل من المغاربة خبزتيـن لكل انسان فى كل يوم ، بالغا ما بلغوا ، وينصب لتفريق ذلك كل يوم انسانا أمينا من قبله ، فقد ينتهى فى اليوم الى ألفى خبزة أو أزيد ، بحسب القلة والكثرة ، وهكذا دائما ، ولهذا كله أوقاف من قبله حاشا ما عينه من زكاة العين لذلك » (٢٠) •

---

(١٩) د . سعد زغلول ، الاثر المغربى ، ص ٢٥٤ .
(٢٠) ابن جبير ، الرحلة ، ص ١٠ .

وعلى الرغم من سوء معاملة سلاطين المماليك لتجار المغاربة ، الا أن السلطان الغورى كان يحيطهم بعنايته ويتعهدهم برعايته ، ففى سنة ٩١٥ هـ / ١٥١٦ م « أفرد السلطان على طائفة المغاربة اثنين وثلثين ألف دينار وكان سبب ذلك أن تغرى بردى الترجمان لما توجه الى بلاد الفرنج اشترى من ملوك الافرنج عدة أسرى من المغاربة بنحو من خمسين ألف دينار ، فلما خلصوا أراد السلطان أن يوزع ما غرمه من المال على طائفة المغاربة التى بمصر والاسكندرية فى نظير ما غرمه » (٢١) .

وفى نفس السنة : « نزل السلطان الغورى الى الميدان فوقف على جماعة من المغاربة نحوا من سبعين انسانا ما بين رجال ونساء وقدقصدوا الحج فى هذه السنة فرسم لهم السلطان بأشرفى لكل واحد منهم ثمن بقسماط » (٢٢) .

وكانت هذه الاعانة تتم فى كثير من الاحيان بغض النظر عن تصنيف المغاربة بين من جاء بقصد الحج أو لطلب العلم ، كما كانت تؤدى أحيانا دون ملاحظة الفرق بين مياسيرهم وفقرائهم . ولقد أشار بعض المقربين الى صلاح الدين عليه بأن يستثنى المياسير منهم من تلك الاعانة لعدم حاجتهم اليها ، وذلك بعد أن تبين لهم عند رؤية بعض القادمين من طرابلس عبر تلك المسالك البرية « وقد ذهبت رسومهم عطشا وجوعا دون النظر الى ما كانوا يحملونه من المال » (٢٣) .

وعندما يذكر ابن اياس أن تجار المغاربة كانوا ضمن مشاهير الناس

---

(٢١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٦٣ .
(٢٢) ابن اياس ، نفسه ، ج ٤ ، ص ١٦٦ .
(٢٣) د . سعد زغلول ، المرجع السابق ، ص ٢٤٠ .

الذين صادرهم السلطان الاشرف قايتباى سنة ٩٠١ هـ / ١٤٩٦ م ، فان فى ذلك ما يشير الى عظم ما بلغه تجار المغاربة من ترف وثراء فى البلاد • كما نستدل من أشارة نفس المؤرخ (٢٤) الى أن مصر كان قد وصلها فى عام ٨٨٩ هـ / ١٤٨٥ م ألف وخمسمائة حاج من المغاربة على مدى أنتعاش الرحلات المغربية الى المشرق بقصد الحج والتجارة فى آن واحد • ولم تتأثر هذه الرحلات قط باضطراب الاوضاع الامنية فى الاقطار التى يمر بها الحجاج ففى شوال سنة ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م جاءت الاخبار من مكة « بأن الاحوال فاسدة وأن عربان بنى ابراهيم قد التفوا على يحيى بن سبع أمير الينبع ومالك بن رومى أمير خليص وقد أشتد الامر فى ذلك جدا فلماتحقق السلطان ذلك أمر بابطال التوجه الى الحجاز فى هذه السنة من مصر والشام وسائر الاعمال قاطبة • وكانت هذه الواقعة من أعظم المصائب والثلم فى الدين ، وقد حضر الركب التكرورى والركب المغربى ولم يحج منهم أحد فى تلك السنة » (٢٥) •

---

(٢٤) ابن اياس ، نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٢٠ . ويذكر ابن اياس « فى سنة ٨٨٩ هـ حج الشيخ عبد اللطيف شيخ ركب المغاربة ، وكان قدم صحبة الركب من تونس بروح الحج وكان بالركب نحو من ألف وخمسمائة انسان من المغاربة يقصدون الحج (ج ٢ ، ص ٢٢٤) .

(٢٥) ويزودنا ابن اياس بوصف دقيق لما قام به الاعراب ، وقد أبدى مخاوفه فى أن يتكرر مع الحجاج المغاربة والسودانيين ما حدث سنة ٩٠٨ هـ بالنسبة للركب الشامى والعراقى والمصرى وما صنع بالمجاورين بمكة . وهو تشبيه بما حدث سنة ٣٠٨ هـ فى عصر الخليفة العباسى القاهر بالله لما تغلب عليه القرامطة ، وكان زعيمهم أبو ظاهر خارجيا سفاكا للدماء ، جاهلا . ولما وصل ركب الحجاج من بغداد يتقدمه أمير الركب منصور الديلمى مكة واقام بها الى يوم الصعود هجم عليهم أبو ظاهر بمن معه من العربان فقتل محارب أمير مكه والديلمى ، ونهبت جميع الاموال بمكة وقتل الحجاج وأسر النساء

ومن مظاهر الصلات الاجتماعية بين المغاربة والمشارقة الاحتفالات التى كان يقيمها الحجيج المغاربة وما كانت تحمله مواكبهم من هدايا حكام تونس الى سلطان مصر • ويشهد عليها النموذج الخاص بوصول رسول تونس (أبو يحيى زكرياء المسعود أبى عمرو عثمان) الى مصر لدى السلطان الغورى وصحبته « تقدمة حافلة للسلطان قيل انها قومت بعشرة آلاف دينار وهى ما بين قماش فاخر وخيول وسلاح وغير ذلك فأخلع عليه السلطان كاملية صوف بصمور ونزل من القلعة » (٢٦) •

ومن الجدير بالذكر أن العلاقات الودية توثقت بين تونس ومصر بحيث اتخذت سمات الروابط الاسرية • فكان حرص الحفصيين على أن يعلموا سلاطين مصر بأخبارهم ، مثل ذلك أنه عندما تم لهم الانتصار على الفرنج فى جزيرة جربة أعلموا مصر بهذا النصر فى ربيع الاول من سنة ٩١٧ هـ / ١٥١١ م ، وسجلوا فى مكاتباتهم ما غنموه من غنائم وعدد قتلاهم

والصبيان الصغار ، فكان من قتل فى ذلك نحو ٣٥ الف ، وطرح غالب القتلى فى بئر زمزم ، واخذ الذهب والفضة ، وخلع باب الكعبة والحجر الاسود وعرى الكعبة ، وبذلك انقطع الحج من بغداد وغيرها من البلاد عشرين سنة ، حتى لخلافة الراضى بالله احمد بن المقتدر حيث تم الصلح مع تلك الطائفة وأذنوا للناس بالحج وجعلوا على الحجاج فى كل سنة نحوا من خمسين الف دينار تعطى لتمكينهم من الدخول الى مكة . وهذا اول مكس أخذ على الحجاج من سنة ٣٣١ هـ وتلطفوا بالقرامطة حتى ردوا الحجر الاسود وباب الكعبة الى مكانها . (أنظر ، ج ٤ ، ص ٨٩) . راجع أيضا : المقريزى ، المواعظ والاعتبار ج ٢ ، ص ٩٢ . ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٩٤ ، ٢٤٩ . ابن الجوزى ، المنتظم فى تاريخ الملوك والامم ، ج ٥ ص ١١٠ — ١١٩ . الصابى . (ثابت بن سنان) تاريخ أخبار القرامطة ، جمع وتحقيق سهيل زكار ، بيروت ١٩٧١ ، ص ٧ ، ١١٣ .

(٢٦) ابن اياس ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٦٨ .

وأبراهم ، بل « وبعثوا للسلطان مكحلة نحاس كبيرة وأشياء كثيرة من أنواع الهدية وشخصين من أسراء الفرنج وعليهم آلة السلاح » (٢٧) .

وقد بلغ التأثير المغربى على الحياة الاجتماعية بمصر الى حد أنه فى عام ٨٨١ هـ / ١٤٧٦ م « أشيع بين الناس أن السلطان (قايتباى) يتزى بزى المغاربة وينزل الى جامع الازهر ويصلى به » (٢٨) . ولم يكن هذا غريبا أو من قبيل الاشاعة مع كثرة العلماء والفقهاء والمغاربة الذين تولوا عدة مناصب هامة فى الحياة العلمية المصرية .

(د) من مظاهر التأثيرات المتبادلة بين مصر والمغرب :

وأتصالا بموضوع الاحتفالات وما حملته من مؤثرات مغربية ماظهر من المديح الذى ذكر البعض أنه من مستحدثات القرن السابع الهجرى . ومن رواد هذا الفن فى مصر البوصيرى وابن دقيق العيد الذى وصفه العبدرى فى رحلته بأنه : « .. صاحب المدرسة الكاملية ، لقيت منه حبرا يحق له اللقاء وبحرا من علم لا تكدره الدلاء وطيا آسيا .. ما يلقى له فى سبعة المعارف نظير أو يوجد من يماثله فى صحة البحث والتنقير ، وله فى البلاد ذكر شهير .. فهو الآن قطب مصر وعلمها » (٢٩) .

وأذا كان البعض يرى أن نشأة فن المديح قد صاحب ركب الدعوة الإسلامية من مطلع تاريخها ، فان المؤكد أن هذا الفن لم يكتسب صبغته الكاملة الا بعد اتصاله بالفكر الصوفى المغربى . ونشهد من القرن الخامس الهجرى قصائد مثل القصيدة المعروفة بالشقراطية لصاحبها

---

(٢٧) ابن اياس ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٢١٨ .
(٢٨) ابن أياس ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٦٧ ، ج ٣ ، ص ١٢١
(٢٩) العبدرى ، الرحلة ، ص ١٣٨ — ١٣٩ .

الشيخ ابن محمد عبد الله بن يحيى الشقراطيسى التوزرى المتوفى سنة ٤٦٦ هـ / ١٠٥٤ م • ثم أن البوصيرى صاحب البردة مصرى المولد مغربى الاصل من صنهاجة حسبما يشهد بذلك لقبه (محمد بن سعيد الصنهاجى) فضلا عن أنه تتلمذ أيضا على أبى العباس المرسى •

وكما عرفت مصر مثل هذه التأثيرات المغربية فى حياتها الاجتماعية ، فقد عرف المغرب الموحدى والحفصى بعض التقاليد المشرقية وفى مقدمتها الاحتفال بالمولد النبوى الشريف • فقد ذكر ابن خلكان فى وفياته أن «ابن دحية السبتى وهو من كبار علماء المغرب فى عصر الموحدين ، رحل الى المشرق فأنشأ له الكامل الايوبى المدرسة الكاملية للحديث فى القاهرة سنة ٦٢٢ هـ ، وولى أمرها من بعده لاخيه أبى عثمان ثم لابنه شرف الدين» (٣٠) ثم يذكر ابن خلكان أنه بعد عودة ابن دحية من مدينة أربل الى خراسان عام ٦٠٤ هـ ، رأى الملك مظفر الدين بن زين الدين مولعا بعمل المولد النبوى عظيم الاحتفال حتى أنه ألف له كتاب « التنوير فى مولد السراج المنير » • وأنتقلت فكرة الاحتفال بالمولد النبوى الى المغرب • وكان العزفيون (أبو العباس العزفى السبتى ، المتوفى عام ٦١٣ هـ وأبنه أبو القاسم) أول من استحدثها فى المغرب نقلا عن المشرق (٣١) •

ويبدو أن الموحدين احتفلوا بالمولد فى أواخر عهدهم • فقد ذكر ابن عذارى أن المرتضى وهو الخليفة قبل الاخير (بويع سنة ٦٤٦ هـ وقتل ٦٥٦ هـ) : « •• كان يقوم بليلة المولد خير قيام ويفيض فيه الخير والانعام ، وكان أشار له بذلك الفقيه أبو القاسم العزفى لانه لما ألف كتابه

---

(٣٠) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ط بولاق ، ج ١ ، ص ٤٨١ .
(٣١) د . عباس الجرارى ، الادب المغربى من خلال ظواهره وقضاياه ج ١ ، الرباط ١٩٧٩ ، ص ١٤٥ .

(الدار المنظم فى مولد النبى المعظم) وبعث به اليه وأشار بذلك الرأى عليه » (٣٢) .

وأستمر هذا التقليد متبعا حتى العصر المرينى الى حد أن الشعراء الشعبيين كانوا يتبارون أمام السلطان المرينى فيما كان يقيمه لهذه المناسبة من احتفالات تموج بالشعراء والادباء ورجالات العلم ، وكان الفائز منهم يظفر بمائة دينار وفرس ووصيف وخلعة يخلعها عليه السلطان . أما سائر الشعراء فكان كل منهم يظفر بخمسين دينارا (٣٣) .

وبالاضافة الى ما سبق أن ذكرناه من شواهد تدل على عمق وتأصل العلاقات المغربية بالمشرق الاسلامى عامة ، وفى المجتمع السكندرى خاصة نلاحظ أن أهل الاسكندرية مازالوا يستخدمون فى لهجتهم المحلية نون الجمع بالنسبة للمفرد المتكلم مثل ذلك ما أورده الاستاذ الجليل الدكتور سعد زغلول عبد الحميد فى بحثه القيم عن مجتمع الاسكندرية فى العصر الاسلامى نسوق منها على سبيل المثال لا الحصر : « نأكل ونشرب ونلعب ونروح .. » بدلا من : « آكل وأشرب وألعب وأروح .. » . وما يزال أحد أسواق الاسكندرية يعرف حتى عهد قريب بسوق المغاربة وهو من أشهر أسواق الاسكندرية وكان يقوم فى قلب المدينة (٣٤) .

---

(٣٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ٤٥٢ .

(٣٣) — Leon L'Africain; Description de L'Afrique; Adrien-Maisonneuve Paris, 1956. pp. 214—15.

(٣٤) د . سعد زغلول ، الاثر المغربى ، ص ٢٠٩ حيث يذكر لنا كيف ضحت المدينة بهذا السوق فى سبيل انشاء الطريق الجديد الموصل من « المنشية » الى الميناء الغربى . وقد عرف هذا السوق مؤخرا (بسوق سوريا) فى طرفه الاخير على اثر العلاقات الخاصة التى قامت مع سوريا عقب الوحدة الاندماجية (١٩٥٨ — ١٩٦١ م) والتى أدت الى ازدهار تلك السوق . ثم تحول الاسم الى اسم « سوق ليبيا » اثر زيادة توثيق العلاقات بين البلدين فى سبيل تحقيق (الوحدة الاندماجية) .

وفى سوق المغاربة هذا وبالقرب منه كانت تباع أنواع الثيـــاب والفرش المغربية من : البرانس المخططة أو البيضاء ذات غطاء الـرأس المدبب أو بغيره (وهو ما يعرف فى العامية المغربية بالقب) ، والملاحـف والاخفاف الفاسية المطرزة ، والبسط الصوفية بأنواعها الى جانب أنـواع الطعام المعروفة فى المغرب والتى يستخدم العجين فى صنعها • وأشهـر هذه المأكولات « الكوسكوسى » الى جانب المحمصة التى تصنع على شكل حبات كروية صغيرة أقل حجما من حبات الحمص ، أو « الشعيرية » التى تتخذ شكل حبات خيطية فى حجم حبات الشعير • وكان المتخصصـون فى بيع كل ذلك رجالا ونساء من المغاربة (٣٥) •

وبالاضافة الى ما سبق ، هناك بعض المنجمين من أصول مغربيـة يشتغلون بفتح « الكتاب والمندل » ويتنبأون بالمستقبل ويعرفون مخابىء الكنوز (٣٦) ، فكانت لهم فى قلوب أهل المدينة السكندرية هيبة ورهبة (٣٧) (ولا زال هؤلاء موجودون فى المغرب الى الآن بصفة خاصة فى مدينـــة مراكش حيث يتجمع العدد الكبير منهم فى ساحة الفنا • وهى أهم ميادين المدينة وتعتبر من أهم المناطق التى يقوم الزوار والسياح بزيارتها علـى مدار السنة) •

---

(٣٥) د . سعد زغلول ، المرجع السابق ، ص ٢١٠ .

(٣٦) وقد اشتهر هؤلاء بالكذب وقيلت فيهم الامثال ومنها « افتح الكتاب مغربى كذاب » .

(٣٧) د . سعد زغلول ، نفس المرجع والصفحة .

(٢)

انخراط المغاربة فى سلك الوظائف المشرقية

كثر عدد المغاربة الذين رحلوا عن بلادهم وأستقروا فى أقطار المشرق الاسلامى وتنوعت وجوه الحياة التى انخرطوا فيها ، وأن كان معظمهم يشتغل بالتجارة ، كما أن عددا من أقطابهم تفرغوا لنشر الفكر الصوفى ، ومنهم أيضا من نال حظوة لدى الحكام والسلاطين فأسندوا اليهم بعض المناصب الرفيعة كمنصب القضاء أو الكتابة . ولقد وصل الينا أسماء عدد كبير ممن شغلوا هذه المناصب فى مصر ، ومنهم من ولى قضاء دمشق شأن القاضى شهاب الدين أحمد بن سعيد بن السيوسى المغربى المالكى (ت ٨٧٤ هـ) ، وقاضى قضاة المالكية بدمشق ، الذى ولى قضاء الاسكندرية ، وكان « من أهل العلم والفضل ، وجرت عليه أمور شتى وأذهب أموالا جمة على وظيفة القضاء » (٣٨) .

ومنهم من تخصص فى الفقه المالكى ببغداد أمثال الفقيه المحدث بدر الدين أبو على الحسن بن أحمد الزهيرى ، المالقى ، وكان أفضل علماء عصره ، ولما قدم بغداد رتب فقيها فى المالكية (٣٩) . والفقيه أبو عبد الله محمد بن على بن محمد العربى بن المغربى ، قدم بغداد سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م قرأ عليه ابن الدبيثى مجموعة من المنامات النبوية (٤٠) .

ومن الاسماء المغربية التى لمعت فى مناصب القضاء فى مصر :

ـ عماد الدين الكندى قاضى الاسكندرية وعنه يقول ابن بطوطة :

---

(٣٨) ابن اياس ، بدائع الزهور ، بولاق ١٣١١ هـ ، ج ٢ ، ص ٩٩ .
(٣٩) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج ٩ ، ص ١٧٥ .
(٤٠) د . بدرى محمد فهد ، تاريخ العراق ، ص ٤٢٠ .

« .. امام من أئمة علم اللسان ، وكان يتعمم بعمامة خرقت المعتاد للعمائم ولم أر فى مشارق الارض ومغاربها عمامة أعظم منها . رأيته يوما قاعدا فى صدر محراب ، وقد كادت عمامته أن تملا المحراب » (٤١) .

— وشمس الدين محمد بن أبى القاسم بن عبد السلام الـــريفى التونسى المالكى (٦٣٩ — ٧١٥ هـ / ١٢٤١ — ١٣١٥ م) الـــذى درس بمدارس القاهرة وناب فى الحكم بالحسينية ، ثم ولى قضاء الاسكندرية ، ولو أن ولايته هذه لم تحمد (٤٢) .

— ومنهم ولدا التنسى : كمال الدين التنسى (ت ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ م) وأبنه محمد اللذين توليا قضاء الاسكندرية ، وناصر الدين أحمد بن محمد جمال الدين ابن عطاء الله (٧٤٠ — ٨١٠ هـ / ١٣٣٩ — ١٤٠٧ م) الـــذى ولى قضاء المالكية .

— وأبو عبد الله القارىء المالكى المغربى الـــذى نـــاب فى حكم الاسكندرية .

— وعبد الله بن محمد بن سهل المرسى المغربى نزيل الاسكندريـــة الشهير بالشيخ نهار توفى سنة ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م (٤٣) .

— وأبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن عبد الله المرجانى التـــونسى الاصل ، الاسكندرانى الموطن (٧٢٤ — ٧٨١ هـ / ١٣٢٤ — ١٣٨٠ م) (٤٤)

---

(٤١) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ١٥ .

(٤٢) لم تحمد هذه الولاية لاتهامه بأخذ الدراهم فى قضاء الحـــوائج (انظر : ابن حجر ، الدر ، ج ٤ ، ص ١٤٩ — ١٥٠ . د . سعد زغلول ، الاثر المغربى ، ص ٢٦١) .

(٤٣) ابن حجر ، أنباء الغمر ، ج ١ ، ص ١٨٤ .

(٤٤) ابن حجر ، نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٠٧ .

ـ وأبو عبد الله الدكالى المتوفى بالاسكندرية سنة ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ م وكان « من أعجوبة الدهر فى عظمة الزهد والدين وخشونة العيش والسير على طريقة السلف » (٤٥) .

ـ وسالم بن عبد الله ابن سعادة بن طاجين القسنطينى نزيل الاسكندرية (ت آخر ٨٢٠ هـ / ١٤١٧ م) (٤٦) .

ـ وأبو الطيب محمد بن أحمد بن محمد بن علوان المالكى التونسى السكندرى المتوفى بالاسكندرية فى سنة ٨٢٨ هـ / ١٤٢٤ م ، وكان من أكابر شيوخ المالكية ، سمع عليه عدد من مشاهير علماء المدينة(٤٧) .

ـ وأبو بكر بن عبد الرزاق الدكالى المالكى الذى تفقه على يدى محمد بن يوسف السكندرى ، توفى بمكة سنة ٨٢٧ هـ / ١٤٢٤ م (٤٨) .

ـ والشيخ شهاب الدين أحمد بن سعيد التلمسانى المغربى متولى قضاء الاسكندرية بعد وفاة قاضيها جمال الدين عبد الله بن الدمامينى (٤٩)

ـ والشيخ خلف بن على بن محمد المغربى الاصل التروجى المولد ، الشافعى السكندرى » ٧٦٠ ـ ٨٤٤هـ / ١٣٥٩ ـ ١٤٤٠م) الذى سكن الاسكندرية وأرتفعت مكانته العلمية بها حتى صار شيخ الشافعية والمالكية بها (٥٠) .

ـ وأحمد بن محمد بن عمر الصنهاجى السكندرى المولد والمنشأ

---

(٤٥) ابن حجر ، نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٥٤٣
(٤٦) ابن حجر ، نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ١٤٨ .
(٤٧) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٧ ، ٧٧ .
(٤٨) السخاوى ، نفسه ، ج ١١ ، ص ٤٧ .
(٤٩) السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ٣٥ .
(٥٠) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٣ ، ص ١٨٤ .

والوفاة ، القاهرى الحسينى الدار (٧٨٠ — ٨٥٥ هـ / ١٣٧٨ — ١٤٥١ م) وكان دائم الزيارة للقاهرة وبدأها من سنة ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م ، الا أنه لم ينس زيارة الاسكندرية ، حيث تولى مشيخة المدرسة البسامية (٥١) .

— ومحمد بن عثمان بن ظافر المغربى البجائى المالكى (٨١٧ — بعد ٨٦٠ هـ / ١٤٥٥ — ١٤٥٦ م) استقر به المطاف بالاسكندرية حيث طاب له المقام (٥٢) .

— وأبو محفوظ محرز بن على بن مسعود الحسنى المغربى التونسى المالكى نزيل الاسكندرية المعروف بابن الرفاء ، ولد بتونس سنة ٧٩٥ هـ / ١٣٩٣ — ٢ م . (٥٣)

— والشهاب أحمد بن الزينى عبد الرحمن العسلونى بن منصور المقرى الفكير ، المالقى السكندرى ، الذى نشأ بالاسكندرية وصارت له امامة الجامع الغربى بها لمدة ٣٥ عاما (٥٤) .

— وأبو عبد الله محمد بن عبد الله يوسف التونسى الاصل ، المغربى المالكى ، تلقى العلم بالبرلس والقاهرة ، وحج وزار قبل أن يستوطن الاسكندرية حيث توفى فى سنة ٨٨٨ هـ / ١٤٨٣ م (٥٥) .

— وأبو الفضل العز عبد العزيز بن مسلم بن دال المستنانى المالكى المغربى السكندرى (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٧٠ م) (٥٦) .

---

(٥١) السخاوى ، نفسه ، ج ٢ ، ص ١٦٠—١٦١ .
(٥٢) السخاوى ، نفسه ، ج ٨ ، ص ١٤٦ .
(٥٣) السخاوى ، نفسه ، ج ٦ ، ص ٢٤٠ .
(٥٤) السخاوى ، نفسه ، ج ١ ، ص ٣٣٥ .
(٥٥) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٨ ، ص ١١٧ .
(٥٦) السخاوى ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٣٥ .

— وأبراهيم بن سعد بن أبراهيم .. الحضرمى الاندلسى المغربى ، عرف بابن الصباغ والحربى ، وكان أبوه من أثرياء تجار الثغر ، وأضطر ابراهيم الى ترك دراسته بالقاهرة بعد وفاة والده ورحل الى الاسكندرية، ولكنه سرعان ما توفى بعده فى سنة ٨٩٣ هـ / ١٤٨٧ م [٥٧] .

ومن بين الوظائف التى أسندت الى بعض المغاربة أيضا فى مصر والشام وغيرها من أقطار الشرق الاسلامى ، السفارات لا سيما الى الدول الاوربية ، ومنها سفارة محمد بن محفوظ المغربى الذى أرسله السلطان الاشرف قايتباى فى ذى الحجة من سنة ٨٨٣ هـ / ١٤٧٩ م رسولا من قبله الى ملك الكتيلان الفرنجى ، وقد قام السفير المغربى بعمله خير قيام وأرسل ملك الكتيلان الى السلطان قايتباى على يده أى المغربى — هدية حافلة [٥٨] .

ومنهم عبد الرحمن بن خلدون الذى قام بدور السفير الممثل لسلطان المماليك فرج بن برقوق الى تمورلنك عام ٨٠٤ هـ / ١٤٠١ م [٥٩]

ولكثرة اسناد منصب القضاء الى العلماء المغاربة بدت وظيفة القضاء فى مصر والشام وكأنها قد صارت حكرا على المغاربة بحيث أنه عندما يموت أحد القضاة المغاربة يخلفه قاضى مغربى ، ويعبر ابن اياس عن ذلك بقوله عند تعرضه لذكر وفاة القاضى ابن حريز [٦٠] : « .. ولما

---

(٥٧) السخاوى ، نفسه ، ج ١ ، ص ٥١ .

(٥٨) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٥٠ .

(٥٩) ابن خلدون ، التعريف بابن خلدون . ورحلته غربا وشرقا ، تحقيق الاستاذ محمد بن تاويت الطنجى ، القاهرة ، ١٩٥١ ، ص ٣٦٦ .

(٦٠) هو القاضى المالكى حسام الدين بن حريز ، وهو محمد بن أبى بكر بن محمد بن حريز بن أبى القاسم الهاشمى القرشى العلوى الحسنى ، مغربى الاصل ، وعنه يقول ابن اياس : « .. ثم انتشى بمنفلوط وولى القضاء بها مدة

مات ولى بعده أخوه سراج الدين عمر فقرر فى قضاء المالكية عوضا عن أخيه » (٦١) .

ولقد بلغت شهرة بعض القضاة المغاربة من الانتشار حدا دعا بعض السلاطين الى تقريبهم اليهم ومن هؤلاء القضاة القاضى أصيل الحضرى الذى بلغ من الشهرة مبلغا كبيرا ، وأصيل الحضرى هذا هو محمد بن ابراهيم بن على بن عثمان بن يوسف بن عبد الرزاق بن عبد الله المغربى (٧٨٨ هـ / ٨٧٣ هـ) وفيه يقول ابن اياس : « كان مالكى المذهب ، وكان عشير الناس كثير المداعبات والنوادر ، لطيف الذات ، محببا لارباب الدولة ، عاش من العمر مدة طويلة » (٦٢)

ونظرا لما كان يتمتع به هؤلاء المغاربة الوافدين على مصر والشام والمشرق الاسلامى من تقدير لدى الخاصة والعامة فقد اتخذ بعض سلاطين المماليك منهم مشايخ خاصة لهم ، كما حدث فى عهد السلطان قايتباى ، ففى سنة ٨٧٩ هـ : « قرر الشيخ أبو عبد الله القلجانى — أبو عبد الله محمد بن محمد القلجانى التونسى المالكى — قاضى الجماعة فى مشيخة تربة السلطان .. وقرر بها ثلاثين صوفيا يحضرون فى الخمسة أوقات ، وبنى للصوفية حول التربة عدة بيوت يسكنون بها دائما ، ثم رتب لهم الجوامك والخبز والزيت والصابون ، وغير ذلك من وجوه البر المعروف (٦٣) . وكان

كان عالما فاضلا ، جوادا سمحا ، فى سعة من المال ، وسمع على ولى الدين العراقى وابن عياش وغيرهما من العلماء ، وآل أمره الى أن ولى القضاء الاكبر بمصر ، وصفا له الوقت .. وعظم أمره فى القضاء » . وكان مولده سنة ٨٠٤ هـ وتوفى سنة ٨٧٣ هـ (بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١٠٦) .

(٦١) ابن اياس ، نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٨ .
(٦٢) ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٠ ، ج ٣ ، ص ١٩ .
(٦٣) ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٠٠ .

عالما فاضلا فى مذهبه المالكى ، وبعد فترة اقامته الطويلة بمصر قفل عائدا الى المغرب حيث مات سنة ٨٩٠ هـ / ١٤٨٤ م » (٦٤) .

ويقول ابن اياس عن أحدهم : « وفى جمادى الآخرة من سنة ٨٥٩ هـ توفى الشيخ الصالح سيدى محمد المغربى المجذوب رحمة الله عليه ،ولما مات أخذه السلطان اينال ودفنه بجوار تربته تبركا به » (٦٥) .

وشهد ابن اياس لعدد منهم بالعلم والفضل من بينهم تقى الدين أحمد بن محمد بن محمد بن حسن بن على الشمتى القسنطينى ، والشيخ أبو عبد الله محمد التونسى الموصلى المالكى ، أحد أكابر علماء تونس ، عاش نحوا من سبعين سنة (٦٦) .

(٣)

موقف الموحدين من يهود المغرب والمشرق

كان الموحدون من بداية عهدهم قد جروا على عادة المشارقة فى تمييز اليهود وأهل الذمة عامة عن المسلمين . وقصة هارون الرشيد فى هذا الصدد معروفة ، عندما أمر فى عام ١٩١ هـ / ٨٠٧ م بأن يؤخذ أهل الذمة فى بغداد بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين فى لباسهم وركوبهم ، فأمر بأن يتخذوا الزنانير فى أوساطهم وأن تكون قلانسهم مضربة ، وأن يجعلوا شراك نعالهم مثنية ، وأن يتخذوا على سروجهم فى موضع القرابيس مثل الرمانة من خشب ، وأن تمنع نساؤهم من ركوب الرحائل ، كمانهى اليهود والنصارى عن الركوب على السرج (٦٧) .

---

(٦٤) ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٢٢ .
(٦٥) ابن اياس ، المصدر السابق والصفحة .
(٦٦) ابن اياس ، نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ١٢٣ .
(٦٧) — R. Brunschvig; La Berbérie, Tom I, p. 409.

وقد ظلت نفس الاوامر مع التشدد فى تنفيذها سارية فى القـــرن الخامس الهجرى ، بل كان أهل الذمة يمنعون من تعلية بيوتهم على أبنية المسلمين ، وأن ملكوا بيوتا عالية أقروا عليها منعوا من الاشراف منهـا على المسلمين (٦٨) .

هذه السياسة التى أتبعها المشارقة مع أهل الذمة طبقت الى حد كبير فى المغرب الاسلامى عندما تشدد الموحدون فى تنفيذ أحكام الاسلام ، فنجد عبد المؤمن يخير اليهود فى المغربيين الاوسط والادنى بعد أن افتتحـــه لا سيما فى بلدتى بجاية والهدية ، أما فى الدخول الى الاسلام أو الجـلاء عن البلاد أو القتل . وحدد لذلك أجلا معلوما ، فمن أسلم كان لـــه ماكان للمسلمين من حقوق وعليه ما عليهم من واجبات ، ومن امتنع عن الاسلام فى الاجل المعلوم حل دمه وماله . فأسلم الكثير وهاجر القليل ، وأعتنـق البعض الاسلام فى الظاهر (٦٩) ، ونفذت الاحكام مداراة وخشية مـــن القتل ثم خرجوا بأموالهم وأهليهم وأثقالهم مهاجرين وعادوا يهودا كما كانوا .

كانت تلك سياسة الموحدين منذ بداية عهدهم ــ عبد المؤمن ــ حتى عصر المأمون ، وقد عبر ابن جبير عن اعجابه لسياسة الموحدين مع اليهود وتشددهم مع أهل الذمة وعبر ذلك بقوله : « وليتحقق المتحقق ويعتقـد الصحيح الاعتقاد أنه لا اسلام الا ببلاد المغرب ، لانهم ــ أى المغاربة ــ على جادة واضحة كما أنه لا عدل ، ولا حق ، ولا دين على وجهه الا عند الموحدين » (٧٠) .

---

(٦٨) آدم ميتز ، الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ٨٣ ــ ٨٦ .
(٦٩) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٤٩ .
(٧٠) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٤٩ ــ ٥٠ .

ومن الجدير بالملاحظة أن الموحدين اعتبروا اليهود والنصارى أعداء للاسلام وأنهم أهل رجس ودنس وبخس ، فأى انتصار عليهم هو انتصار للاسلام • ووضح ذلك عند انتصار الموحدين على النصارى فى معاركهم المتعددة وأهمها معركة الارك الشهيرة التى خاضها الخليفة يعقوب المنصور الموحدى فعلت الاصوات بالتهليل والتكبير لهذا النصر (٧١) •

ظل اليهود والنصارى على وضعهم ظاهرة الاسلام باطنه الاذى بالمسلمين بعد عبد المؤمن حتى عهد حفيده يعقوب المنصور الذى أمر فى سنة ٥٩٥ هـ / ٨ — ١١٩٩ م بتمييز اليهود بعمل ما يسميه الزركشىبالشكلة « وجعل قمصهم طول ذراع فى عرض ذراع وجعل لهم برانس وقلانس زرقا » (٧٢) • بل يعطينا المراكشى وصفا أدق للباس اليهودى فى عهده يتسم بالمهادنة حيث يقول : « •• أمر أن يتميز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيرهم وذلك ثياب كحلية وأكمام مفرطة السعة تصل الى قريب من أقدامهم وبدلا من العمائم كلوتات على أشنع صورة كأنها البراديع تبلغ الى تحت آذانهم • فشاع هذا الزى فى جميع يهود المغرب ، ولم يزالوا كذلك بقية أيامه » (٧٣) •

ويغلب على الظن أن المبرر الرئيسى لهذا التمييز أن الخليفة الموحدى يعقوب المنصور كان يشك فى اسلامهم ومن مأثور قوله : « لو صح عندى اسلامهم لتركتهم يختلطون بالمسلمين فى أنكحتهم وسائر أمورهم ، ولو صح عندى كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم وجعلت أموالهم فيئا للمسلمين ، ولكنى متردد فى أمورهم ، ولم تنعقد عندنا ذمة

---

(٧١) ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ١٩٧ .

(٧٢) الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص ١٦ — ١٧ . انظر ايضا عن هذه الشكلة ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ٥ ، ٦ .

(٧٣) المراكشى ، المعجب ، ص ١٨٨ .

ليهودى ولا نصرانى منذ قيام المصامدة ولا فى جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة ، انما اليهود عندنا يظهرون الاسلام ويصلون فى المساجد ويقرؤون أولادهم القرآن جارين على ملتنا و سنتنا والله أعلم بما تكن صدورهم وتحويه بيوتهم » (٧٤) .

ظل وضع اليهود على تلك الحال حتى أيام الخليفة الرابع محمد الناصر فترسلوا اليه ولم يعدموا وسيلة حتى الاستشفاع ، فأمر لهم بتغيير الزى الى ثياب صفر وعمائم صفر ، وأستمر الوضع على هذا النحو حتى عام ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م (٧٥) . والمعروف أن بعد حياة الناصر حدث أنهيار فى الدولة الموحدية وأسسها التى أرتكز عليها اليهود فى الحصول على حريتهم ، وساعدتهم الظروف السياسية السيئة التى كانت تمر بها الدولة بعد اعتلاء الخليفة المأمون دست الخلافة وانقلابه على الدعوة الموحدية والتقارب الكبير الذى تم بينه وبين اليهود والنصارى الى حد استنصاره بهؤلاء على قومه المسلمين الموحدين عندما نكث هؤلاء الاخيرون ببيعته عام ٦٢٧ هـ / ١٢٢٩ م ، فأتصل بالملك فرناندو الثالث ملك قشتالة ، وطلب المساعدة بارسال جيش يعبر به الى العدوة لقتال الموحدين ،فأشترط عليه النصارى شروطا قاسية منها : « اعطاء النصارى عشرة من الحصون الموحدية بالاندلس المتاخمة لحصونهم وباختيارهم ، وأن يلتزم ببناء كنيسة للنصارى مع دخولهم الى مراكش يظهرون فيها دينهم ويضربون فيها نواقيسهم لصلواتهم ، وأن من أسلم منهم لا يقبل اسلامه فيرد الى اخوانهم فيحكمون فيه بأحكامهم » (٧٦) . ولقد أجاب المأمون كل هذه المطالب ، فأنتعشت أحوال أهل الذمة فى المغرب .

---

(٧٤) المراكشى ، نفس المصدر ، والصفحة .
(٧٥) المراكشى ، المعجب ، ص ١٨٨ .

ومع ذلك فقد ظلت هذه الكنيسة قذى فى أعين المراكشيين وجميع المغاربة ، ولم تلبث أن هدمت بعد سنتين ، فاهتمت البابوية فى روما بذلك الموضوع وبأحوال القشتاليين العاملين فى الجيش الموحدى • وذهبت أطماع البابوية الى التفكير فى تنصير ملوك الموحدين ورعاياهم من المغرب والاندلس • بدأت الاتصالات لايفاد البعثات ، والارساليات والرهبان ، وذلك فى عهد البابا اينوسان الرابع ، الذى أوفد رسوله القس لويى فرناندیث دى أين الى مراكش عام ٦٤٣ هـ / ١٢٤٦ م ليكون أسقفا هناك وسلم القس كتابا يهنىء فيه الخليفة الجديد عمر المرتضى — السعيد — بانتصاره على خصومه ويشيد بالدور الذى قام به المرتزقة النصارى فى تحقيق هذه الانتصارات ، ويحثه على الاستكثار منهم ، وينصحه باعتناق المسيحية دين النصارى لكى يفوز على حد زعمه برضى الله ويغنم بركة الكوسى الرسولى • وكتب البابا أيضا رسائل مماثلة الى أمراء سبتة وبجاية وتونس يوصيهم بتسهيل الاتصال بين النصارى المقيمين بمراكش وأخوانهم المقيمين بتلك المراسى •

وقد توصلنا الى الاحاطة بمحتوى هذه الرسالة من خلال رد الخليفة عمر المرتضى على البابا برسالة مؤرخة فى ١٨ ربيع الاول سنة ٦٤٨ هـ / ٢٠ يونيو سنة ١٢٥٠ م ، حملها الاسقف لويى نفسه الى البابا اينوسان الرابع (٧٧) • ولاهمية هذه الرسالة اخترتها ضميمة للبحث (وهى مكتوبة

---

(٧٦) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٢٥٣ . ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ٤١٩ . . ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ط تطوان ، ص ٢٦٤—٢٦٥ السلاوى • الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ . وانظر أيضا :

— J. Gonzalez; La Conquistas de Fernando III en Andalucia. Madrid 1946, p. 59.

(٧٧) عبد الوهاب بن منصور ، كتاب الوثائق ، ج ١ ، ص ٢٦٦ .

بخط مغربى جميل فى أعلاه بين الحمدلة والتصلية والمتن علامة الخليفة وهى الحمد لله وحده) (٧٨) .

ولقد حظى الرعايا اليهود فى العهد الحفصى من تاريخ الدولة الموحدية بحرية كبيرة ويذكر الاستاذ برنشفيك : « ... أنه كان يوجد حوالى سنة ١٤٠٠ م عدد كبير من صناع الصاغة اليهود فى السوق التى ما زلنا حتى اليوم نجدهم فيها بتونس » (٧٩) . ولدينا الرسالة التجارية المؤرخة فى ٢٠ شوال ٦٢٤ هـ / ٣ أكتوبر ١٢٢٧ م الصادرة من تونس الى بيزة تؤكد على وساطة اليهود جاء فيها : « .. موصله اليكم عمر بن أبى الجيد الاسرايلى التونسى وصهره بينوره المنتصر وغيرهما فنحب منكم أن تنصفوه فى جميع من يتعين له عليه من حق وبيده عقود ثابتة .. ويكون مرعى الجانب عندكم لانه ممن يكرم علينا .. » (٨٠) .

ولقد حظى اليهود الرهادنة بمثل هذه المكانة فى تونس الحفصية . وكان هؤلاء من التجار المتنقلين يأتون من الصين بلدا الى بلد حتى نورمبرج فى المانيا ينقلون السلع والعلوم والكتب والعادات — ولهم فى كل مدينة أسواق تسمى سوق الرهادنة (٨١) ، لا سيما بأفريقية خاصة فى القيروان . وقد ساهم هؤلاء اليهود بوفرة فى تجارة الاقمشة والمنسوجات الحريرية من البلاد الاسلامية والتوابل والادوية والذهب والرقيق على حدودها ،

---

(٧٨) انظر الملحق رقم ٩

(٧٩) — R. Burnschvig; Op. Cit., p. 409.

(٨٠) ميشيل أمارى ، مجموعة الرسائل ، رقم ٢٨ ، ص ٨٣ — ٨٥ .

(٨١) عن هذه الدورة عبر اوربا وسطها وشرقها والحصول على منتجاتها كسلع مهمة فى الشرق انظر :

— Lopez & Raymond; Medieval Trade, U.S.A., 1961, p. 2931.

وركزوا على الصيرفة (٨٢) .

وكانت لهم مكانة خاصة لدى البلاط الحفصى ، فكلفوا باقتناء نـوع معين من البضائع حققت لهم أرباحا طائلة ، كما كانوا و سطاء تجاريين بين الغرب الاوربى وبين المسلمين فى أفتكاك الاسرى ، وقد سهل لهم هذا الاتصال الحصول على حاجاتهم المالية من أقرانهم فى البلاد الاوربية أو الاسلامية على السواء ، وقاموا بعمليات الربا التى حرمت على المسلمين

وكان من بين هؤلاء اليهود أيضا المترجمون المشرفون على ترجمـة المعاهدات التجارية خاصة بين الحفصيين وأوربا . ففى سنة ٦٩٢ هـ / ١٢٩٣ م عين الطبيب ابن داوود ضمن بعثة دبلوماسية الى تونس من قبل أرغون ، وفى سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٧ م كان موشى التونسى كاتبا لبلديـة جنوة باللغة العربية (٨٣) .

---

(٨٢) كان هؤلاء اليهود يجيدون الحديث بعدة لغات : عربية — فرنسية — اسبانية .. الخ ، ويرتحلون الى الشرق والغرب والعكس ، وكانوا يتجرون فى الخصيان والجوارى ، والدمشقى وفى أنواع مختلفة من الفراء والسيوف ، ويحطوا رحالهم فى فرنسا ، أنظر :

— Rabinowitz, L.I.; Jewish Marchant Adventurers, London, 1948, p. 166—7.

(٨٣) نجاة باشا ، التجارة فى المغرب الاسلامى من القرن ٤ هـ الى ٨ هـ ، تونس ١٩٧٦ ، ص ٧٧ .